



مجلة دراسات تاريخية

NISSN: 9741-2352

EISS :6723-2600



معركة بروزه Preveze (945 هـ – 1538 م)

والخلفية الفلسفية في تطوير البحرية العثمانية

Battle of Previze (945-1538 AD)

and philosophical background in the development of the Ottoman Navy

أ.د محمد دراج

Dr Mohamed Derradj

جامعة الجزائر 2

Derradj2010@gmail.com

كمال بوزريعي

Kamel Bouzerai

جامعة الدكتور يحي فارس – المدية –

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطة عبر العصور

k.bouzerai@gmail.com

المرسل: كمال بوزريعي

النشر: 2022-10-03

القبول: 2022-09-07

الارسال: 2022-06-11

الملخص :

يعتبر انتصار البحرية العثمانية في معركة بروزه Preveze 1538 م بقيادة خير الدين بربروس جنوب غرب اليونان نقطة تحول كبيرة في تاريخ الصراع المسيحي العثماني، كان من أهم نتائجها تحكم العثمانيين في سياسة البحر الأبيض المتوسط لمدة ثلث قرن، وأثبتت القوات البحرية العثمانية يومئذ للعالم تفوقها العسكري والبحري على الدول الأوروبية التي أصبحت عاجزة عن مجابهة الأسطول العثماني منفردة، الأمر الذي أدى بها إلى عقد اتفاقيات التهدئة والهدنة مع الدولة العثمانية من أجل المحافظة على مصالحها.

وبالرغم من أهمية هذا الحدث السياسي والعسكري في تاريخ البحرية العثمانية إلا أنّ المؤرخين المعاصرين والمهتمين بالدراسات العثمانية على الأقل في العالم العربي يَمرون عليه مرور الكرام دون تراث من أجل الوقوف على تحليل الأسباب الموضوعية والنظر في العوامل السياسية التي أدت إلى هذا التفوق البحري المدهش، فجاءت كتابة هذا المقال استجابة لتدارك هذا النقص من أجل رفع الغموض الملتف حول هذه الموقعة من جهة، وبيان سياسة السلطان سليمان القانوني في تطوير أداء مؤسسات الدولة من جهة أخرى ولاسيما القوات البحرية التي كانت محور التوسع في الفتوحات العثمانية في شقها البحري و السّهر على تحسين أدائها والوصول بها إلى أعلى درجة التقدم العسكري البحري، وكان السلطان سليمان القانوني موفقاً إلى حد كبير في قراراته التي اتخذها على مستوى القيادة في القوات البحرية التي غيّرت مجرى التاريخ في سياسة البحر الأبيض المتوسط بقيادة الداهية خير الدين بربروس والتي في تقديرنا لا ينكرها إلا جاحد أو مكابر.

الكلمات الدالة : دراسات تاريخية _ الدولة العلية العثمانية _ الفتوحات العثمانية _ السلطان سليمان _ القوات البحرية _ رياس البحر _ القواعد البحرية _ ضباط البحرية _ الترسانة العثمانية _ الأسطول العثماني _ الملك شارلكان.

Abstract

The Ottoman Navy's victory in the Battle for the Emergence of Privize 1438 m Southwest Greece marks a major turning point in the history of the Ottoman Christian conflict. One of its most important results was the Ottoman rule over Mediterranean policy for a third of a century.

Despite the importance of this political and military event in the history of the Ottoman Navy, modern historians and those interested in Ottoman studies have been going through it without hesitation in order to analyse the objective causes and consider the political factors that led to this amazing superiority. This article was written in order to illustrate Sultan Suleiman's policy of renewing State institutions, primarily the naval forces, which were at the centre of the expansion of OttOman conquests in their naval construction and access

مقدمة

قد يبدو سهلاً أن يحكم الباحث على تأخر البحرية العثمانية في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إذا ما قارناها بالأمم الأخرى، في شرق وغرب البحر الأبيض المتوسط، التي كانت قد قطعت أشواطاً كبيرة في تقدم قواتها البحرية، كالجنوبيين و البنادقة و البزنطيين و فرسان جزيرة رودس، ولعل السبب في ذلك أن الأتراك أمة اشتهرت بالجندية و الحروب البرية و دأبت على التوسع العسكري المرتكز على فلسفة إتقان فنون الحرب و دراسة القتال على الأرض، ولا يحتاج الأمر إلى الاستدلال على تفوقهم في الحروب البرية في بلاد الأناضول، أثناء احتكاكهم مع البزنطيين و المغول وقد أبلوا في ذلك البلاء الحسن، وتقدموا في ذلك أشواطاً كبيرة.

غير أن فلسفة التوسع والفتوحات عند السلاطين العثمانيين الأوائل، كانت تضع دائماً نصب عينها وحدة الهدف في مشروعها الفكري والحضاري الكبير، من خلال التركيز على فتح مدينة القسطنطينية فكان السلاطين العثمانيون الأوائل يحرصون على تلقين أبنائهم هذا المعنى من أجل الظفر بهذا النصر و تحقيق وعد رسول الله ﷺ " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش ". وفي تقديري أن تحول الأتراك في فتوحاتهم إلى الجهاد البحري نابع من إيمانهم بهذا الحديث أولاً و لطبيعة الأرض الجغرافية التي يعيشون عليها ثانياً، كل ذلك اقتضى منهم بذل الجهد المتواصل في تطوير قواتهم البحرية للوصول إلى الرومي ومنها إلى مدينة القسطنطينية.

وتعتبر هذه القناعة بالنسبة لقبيلة بني عثمان، إشكالية وتحدياً باعتبار أن الذّنية الخلفية في حروبهم التقليدية ضد خصومهم البزنطيين والمغول كانت تتم في البر و على الأرض ومن هنا لنا أن نتساءل كيف استطاع الأتراك حل إشكالية نقل صراعهم مع الأعداء إلى البحر كإستراتيجية جديدة ؟ وهل استطاع السلاطين فرض قوتهم و نفوذهم البحري بين الأمم الأوروبية عبر المواجهة العسكرية المفتوحة ؟ أو عن طريق التحالفات السياسية ؟ وكيف استطاع القانوني استغلال الثغرات والنزاعات بين الزعامات الأوروبية من أجل رسم سياسته ؟ ومن هم السلاطين العثمانيون الذين كان لهم السبق في إنشاء الترسانات ؟ (دار صناعة السفن) والقواعد البحرية لتكوين فرسان ضباط القوات البحرية الذين أصبح الكثير منهم قادة للأسطول العثماني ، والقيام بعملية التطوير والتحديث للمدافع و الأسلحة كل هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عنها و نفصل في جزئياتها انطلاقاً من تنوع المصادر و المراجع التي ينتهي أصحابها إلى مدارس التاريخ المختلفة كالتركية والأوروبية و العربية من أجل التمهيد والاقتراب أكثر من الحقيقة التاريخية .

1 تاريخ البحرية العثمانية

يرجع تاريخ البحرية العثمانية إلى استيطان الأتراك في شبه جزيرة الأناضول، بسبب ما كانوا يشعرون به من نقص في القوات البحرية الذي كانوا يعتبرونها عقبة في طريق الفتوحات مقارنة بالجنوبيين أو البنادقة، علما أن أول معاركهم البحرية كانت مع الجنوبيين في عهد السلطان يلديريم بايزيد (1389-1402) وأول معاركهم البحرية مع البنادقة كانت في عهد السلطان محمد جلبي (1413-1421) وأسفرت تلك المعركة عن انهزام العثمانيين واستشهاد جالي بك قائد القوات البحرية العثمانية آنذاك¹.

عندئذ شعر السلاطين العثمانيون بحاجة ماسة إلى إنشاء أسطول قوي ، وجعلوا ذلك من أهم أولويات الدولة و ضاعفوا مجهودهم في صناعة السفن حتى وصلوا إلى منافسة الإمارات المتاخمة لسواحل بحر إيجه و بحر مرمرة وحصل لهم ذلك التفوق السريع بفضل ما كان يتميز به أمراءهم بالجدية والحزم ووحدة الهدف .

لقد تمكن العثمانيون من صناعة أول ترسانة لهم في قره مرسل Kara morseL وتحديدا عندما ضموا قره سي Karasi إلى أراضيهم حيث استفادوا كثيرا من خبراتهم في الملاحة ثم شقوا طريقهم إلى إمارة صاروخان Saruhan وأيدين Aydın و منتشا Münteşa وكانت هذه المدن يومئذ متقدمة في البحرية بالنسبة للعثمانيين ، وفي عهد السلطان يلديريم بايزيد سنة 1390 م كان العثمانيون قد وصلوا إلى مضيق الدردنيل فأقاموا فيه قاعدة بحرية في غليبولي Galibolu وقاموا بتكوين مجموعات من الشبان للعمل في صناعة السفن و أصبحت تلك القاعدة البحرية بعد ذلك مركزا كبيرا لصناعة السفن و مدرسة بحرية لتكوين و تدريب البحارة الأتراك على فنون القتال في البحر حيث تدرب فيها أكبر وأشهر رياس البحر مثل كمال رئيس وبيري رئيس وعروج رئيس وخير الدين بربروس في منتصف القرن الخامس عشر كما كانت غليبولي أيضا نقطة ارتكاز في توجه العثمانيين في فتوحاتهم نحو بلاد البلقان ، ومن هذا التدرج في تطوير الملاحة العثمانية يظهر جليا اهتمام السلاطين العثمانيين الأوائل بالقوات البحرية كقوة استراتيجية ليست بديلة عن القوات البرية ولا سيما في دولة تضم أراض في آسيا و أوروبا على حد سواء ومكنهم ذلك من الوصول إلى فتح مدينة القسطنطينية².

وعندما فتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية سنة 1453م وأصبحت الدولة العثمانية دولة عالمية ضاعف من اهتمامه بالقوات البحرية حيث فتح جزيرة إمروز İmruz ، و وليمي Velimni، و تاşoz Taşoz، و سماديرك Semadirk، ومدلي Midili، وأغريبوز Ağrıbus من أجل تأمين السواحل في غرب الأناضول، وانتصر في كثير من المعارك البحرية التي خاضها ضد البندقية وفرض الجزية على بعض الجزر

وانتزع من إيطاليا قلعة أوترانتو otranto وأنشأ دار صناعة السفن باسطنبول كانت هذه الأعمال جديرة بتصنيف الفاتح مع السلاطين العثمانيين العظام وقائدا من الطراز الأول³.

وما إن تولى السلطان بايزيد الثاني الحكم (1481-1495) حتى زاد من اهتمامه بالبحرية العثمانية أكثر حيث أمر بإنشاء السفن الحربية الكبيرة ، وألحق بخدمة الأسطول العثماني كبار البحارة الأتراك مثل كمال رئيس و براق رئيس علما أن هؤلاء البحارة ورياس البحر كانوا يعملون مع الأمير قورقوت الذي كان له الفضل أيضا في دعم وتطوير البحرية العثمانية⁴ ، ولما جلس السلطان سليم الأول على العرش (1512-1520) كان من ضمن أهم أعماله توسيع ترسانة القرن الذهبي التي أنشأت في عهد جده السلطان محمد الفاتح وأمر بإنشاء سفن جديدة من أجل توسيع القوات البحرية غير أنه ما أوشك أن يستفيد منها حتى وافته المنية⁵.

وعندما تولى الحكم السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) ورث عن أبيه ميراثا ضخما ، من الترسانة البحرية فكان من أهم أعماله الاستراتيجية فتح جزيرة رودس ، التي كانت عاصمة على العثمانيين فترة طويلة من الزمن ، واستدعاء خير الدين باربروس والي الجزائر وجعله قائدا على القوات البحرية العثمانية كلها ومشرفا على دار صناعة السفن باسطنبول فأضاف بعلمه وخبرته الكثير للأسطول العثماني ، حتى وصل إلى الذروة في القوة والنشاط ، والذي يرجع الفضل إليه في التحكم والسيطرة على البحر الأبيض المتوسط⁶.

ولا شك أن المتتبع لمسيرة السلاطين في تطوير البحرية يتبين له أن وصول القوات البحرية العثمانية إلى هذا النجاح المهر إنما كان بفضل التخطيط المتواصل للسلاطين المتعاقبة كلما جاء سلطان أضاف على إنجاز من قبله حتى تضاعفت الجهود وفق استراتيجية واحدة وهذا ما فعله بالضبط السلطان سليمان القانوني في إعادته لترتيب هياكل القوات البحرية العثمانية ، حيث قام بتحديث كل من ترسانة غاليبولي و اسطنبول في صناعة السفن وترقية رياس البحر وخاصة الذين تدربوا على يد كمال رئيس وعروج رئيس وخير الدين باشا في الجزائر التي أصبحت عاصمة الدولة العثمانية في شمال أفريقيا كل ذلك بفضل القوات البحرية التي تشكلت في عهد الإخوة باربروس وعروج وخير الدين⁷.

فكان من بصيرة السلطان سليمان القانوني أن جعل البحرية الجزائرية هي المسئولة في المقام الأول عن ظهور مدينة الجزائر كقوة إقليمية ، ومرجعا مهما في تحديد علاقاتها مع الدول الأوروبية وترتيب أولياتها في السلم والحرب لما كانت تتميز به من كفاءة رياس البحر ، ولذلك نجد الكثير منهم قد تبوأ المناصب العليا في البحرية العثمانية ، كما اشتهرت مدينة الجزائر كمركز لأكثر القوات البحرية نجاحا في الأسطول العثماني⁸.

ولعل هذا الأمر يرجع في تقديره إلى قوة شخصية السلطان سليمان في تنفيذ سياسته التي كان يراها تصب في مصلحة الدولة و لا يلتفت إلى ضعاف النفوس ، ذلك أن المعيار الأساسي في اختيار رجال الدولة و ضباط البحرية الكبار إلى عهد السلطان سليمان القانوني هو عنصر الكفاءة وقد ذكر خير الدين بربروس في مذكراته هذه الملاحظة من أن الكثير من ضباط البحرية في اسطنبول كانوا يحسدونه على اختياره قائدا للقوات البحرية العثمانية ولا أحد فهم استطاع أن يفتح قلعة واحدة⁹ ، وقد ذكر الأوربيون ورجال الدولة العثمانية أنفسهم ملاحظات حول رياس البحر الذين كانوا يتعاملون معهم ، فذكروا أن رياس الجزائر كانوا أفضل إذا ما قورنوا مع غيرهم من سكان اسطنبول¹⁰ .

ولم يصل الأسطول العثماني إلى درجة الازدهار و العظمة إلا في عهد السلطان سليمان حيث كانت القوات البحرية متمركزة في عدة مناطق من العالم في كل من اسطنبول وغاليبولي و الأرناؤوط و الأدرياتيك و الإسكندرية وفي المحيط الهندي وجزائر الغرب ، فكان الأسطول يحتوي على مائتين وثمانين قطعة بحرية يقوم بسحبها ثلاثون ألفا من جنود الملاحه أي ما يعادل مائة وعشرة رجال في السفينة الواحدة و أربعون ألفا من جنود الانكشارية وستمائة مدفعي للقتال في البر و عدة فرسان من ضباط البحرية (تمارلي سباهي) ، ومن عظمة الأسطول العثماني أنه خرج إلى الفتوحات في ثلاث بقاع من الأرض في فترة واحدة فقد قام خير الدين باشا بتسليم قسم منه للسلطان سليمان للقيام بحملته العسكرية على بوغدان Buğdan وهي من الحملات النادرة التي اشترك فيها الأسطول العثماني وقسم آخر من الأسطول كان تحت قيادة الوزير الأعظم سليمان باشا متجها في حملة إلى المحيط الهندي وقسم ثالث كان تحت قيادة خير الدين بربروس يستعد للخروج به إلى محاربة شارلكان المدعو كارلوس فكان الأسطول العثماني مقسما إلى ثلاث جهات وهذا لعمر الله من عبقرية سياسة السلطان سليمان وفي المقابل كانت روما المسيحية الغربية على رأس أكبر دولة مسيحية في أوروبا تجمع كلا من اسبانيا وايطاليا وألمانيا والنمسا و بلجيكا و هولندا و جزءا كبيرا من أمريكا الجنوبية و الوسطى بقيادة أندريا دوريا قائد القوات البحرية الصليبية الإيطالي الذي ينتهي إلى مدينة جينوة الإيطالية¹¹ .

2 سياسة القانوني في تأمين الخطوط البحرية التجارية

عندما جلس السلطان سليمان القانوني على العرش (1520 - 1566 م) كانت أوروبا تعيش انقساما حادا بين الملك شار الخامس وفرنسوا الأول بسبب اختيار شارل الخامس على عرش الأمبراطورية الرومانية سنة 1519 م وتعهد للبابا بول الثالث مقابل تاج العرش بتوحيد كل أوروبا للقضاء على العثمانيين .

غير أن فرنسوا الأول كان رافضا لهذه الزعامة فأدى النزاع على العرش إلى نشوب حروب بينهما كانت من نتائجها انقسام الدول الأوروبية الأمر الذي فتح الطريق أمام الفتوحات العثمانية فقام السلطان سليمان بحملات متعاقبة في أوروبا الشرقية فاستولى على بلغراد سنة 1521 م وكانت تعتبر بوابة أوروبا الوسطى

يومئذ وفتح جزيرة رودس سنة 1522م وانتزع ولاء البندقية وقام بتحالف استراتيجي مع الفرنسيين من أجل عدم الانحياز و في نفس الوقت لا يمكن لأوروبا تحييد الدولة العثمانية عن شؤون السياسة الأوروبية¹².

فاستمر القانوني في حملاته المتعاقبة على أوروبا ومع ذلك لم يتمكن من جر شارلكان إلى معركة حاسمة بل انتزع منه أندريا دوريا ميناء كورون korun في المورة كما انتزع منه مدينة تونس سنة 1535م بعدما استرجعها خير الدين بربروس فأدرك السلطان سليمان أن استرجاع النصارى لبعض المناطق كان نتيجة الهدنة التي كانت تعقدها فرنسا سرا مع بعض الدول الأوروبية من جهة وتحالف الصفويين مع أسبانيا و البرتغال من جهة أخرى و الذي كان يعتبر حرب استنزاف بآتم معنى الكلمة للعثمانيين فكان لا بد عليه من استدراك ذلك الخطر بفتح جهة ثانية في المتوسط و القيام ببعض التغييرات في هرم البحرية العثمانية¹³.

فقام السلطان العثماني باستدعاء والي الجزائر خير الدين بربروس سنة 1534 م و أسند إليه أعلى رتبة في البحرية العثمانية مقابل خبرته وغزواته غرب المتوسط وأمضى تحالفا رسميا مع الفرنسيين سنة 1536 م وهو ما يعرف في تاريخ الدولة العثمانية بالامتيازات الفرنسية ، وكان الغرض من هذه السياسة الخروج من نمط العلاقات الأوروبية العثمانية التي كانت قائمة على قاعدة الولاء و البراء المطلق في الحروب والمواجهة العسكرية المفتوحة وتحويلها إلى علاقات سياسية استراتيجية ذات مصالح مشتركة بين فرنسا و الدولة العثمانية وبعد هذه الاتفاقية سمح للجالية الفرنسية بالتنقل في كل أنحاء الدولة العلية وممارسة نشاطهم التجاري بكل حرية ، دون ضرائب تدفع وبقيت تلك التجاذبات السياسية و العسكرية في المنطقة أشبه ما تكون بعملية المدو الجزر بين السلطان سليمان و الملك شاركان أو ما يسمى بالامتداد العثماني المباشر وغير المباشر في الأراضي الأوروبية¹⁴.

3 رد فعل البابا بولس على السياسة العثمانية

كان البابا بولس كلما شعر بالضغط من قبل العثمانيين استخدم سلطته الدينية واستنفر الدول الأوروبية من أجل توحيدها وإيقاد الحماس الديني والمعنوي في ملوكها لإيقاف زحف العثمانيين والاشتباك معهم في معركة حاسمة لحماية المقدسات الصليبية، وحتى يتم له الأمر قام بعقد عدة اتفاقيات للهدنة بين ملك فرنسا وملك أسبانيا ، وقام شرلكان استجابة للبابا بعقد تحالف كبير ضم إليه معظم الدول الأوروبية مثل إسبانيا وألمانيا و البرتغال وكان يهدف من خلال هذا التحالف إلى تصفية الوجود العثماني في الجزائر الذي كان يمثل مصدر التوتر لأوروبا و من ثم بسط أغلال النفوذ الاسباني على كل شمال أفريقيا ، واستغلت قوات البندقية هذا التحالف فاجتمعت في كورفو Korfo من أجل استرجاع الجزر التي ضاعت منها في بحر إيجه ، فجمعت الدول الأوروبية أكبر أسطول في تاريخ البحرية الأوروبية حيث شاركت فيه ستمائة سفينة

حربية من أنواع قاديرغه¹⁵ Kadirga وقاليون Kaliyon تحمل معها ستين ألفا من جنود البحرية ،تقوم بسحبها عشرة آلاف من جنود الملاحة بالإضافة إلى عشرين سفينة ضخمة تحتوي على ثلاث طوابق وتحمل أكثر من عشرين ألف جندي تحت قيادة البحارة الإيطالي أندريا دوريا الذي ينتسب إلى مدينة جينوة الإيطالية المتميزة بمصارعة فرسانها وقوتهم وشجاعتهم وذكائهم العسكري وقد قام بمصارعة العثمانيين في معارك كثيرة ولفترة طويلة من الزمن انتصر في بعضها وانهزم في أغلبها ، ودخل في خدمة الملك شريكان الذي كان يمثل روما المسيحية الغربية وكان على رأس أكبر دولة مسيحية في أوروبا تجمع كل من اسبانيا وايطاليا وألمانيا والنمسا و بلجيكا و هولندا وقد حاول مرارا أن يهزم خير الدين باربروس و يمسك به أسيرا لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا¹⁶.

4_ تحرك الأسطول العثماني بقيادة خير الدين باربروس

عندما سمع باربروس خير الدين باشا نبأ تداعي القوات البحرية الصليبية جنوب غرب اليونان أرسل من يرصد له وضعية العدو لأخذ الحيلة و الحذر وهو الأمر الذي يفعله القادة العسكريون تمهيدا للحرب ، وعند نهاية فصل الشتاء أمر السلطان سليمان القانوني وزراءه بتجهيز مائة وخمسين سفينة استعدادا للإبحار ، وبينما كان خير الدين يضع اللمسات الأخيرة في ترتيب و تجهيز الأسطول البحري وصله الخبر بقدم أندريا دوريا بعشرين سفينة إلى جزيرة كريتGrit حينئذ نشر خير الدين باشا خبر تأخر خروج أسطول السلطان ولعل الغرض من ذلك هو التعتيم على العدو بخلط أوراقه وحساباته و التغطية على أسطول صالح رئيس من أجل تأمين سفنه المحملة بالبضائع و السلع القادمة من مصر و الهند إلى اسطنبول ، ثم انطلق خير الدين باربروس بأربعين سفينة وأوصى بإرسال السفن التسعين الباقية خلفه وانضم إليه ثلاثة آلاف من جنود الباب العالي من الإنكشارية كما أخذ معه بعض أمراء البحرية من قادة الألوية الكبار فجعل علي باي على لواء قوجه أعالي بك، و خرم باي على تكة صاكجاق بكى ، ، و علي باي على لواء شايداغ صانجاق بكى ، ومصطفى باي على لواء آلانيا بكى¹⁷.

في هذه الأثناء كان خير الدين باربروس يراقب الطريق في بحر إيجه ويقوم بتعزيز قواته البحرية فانضمت إليه تسعون سفينة أخرى التي أمر بإرسالها خلفه بالإضافة إلى وصول أسطول صالح رئيس القادم من مصر وهكذا استطاع خير الدين تعبئة وحشد قواته البحرية عبر مراحل، بعيدا عن المجازفة و المخاطرة بالجنود أو بالسفن مما يدل على الحنكة والنظرة الفاحصة في الحروب ثم قرّر خير الدين باشا الذهاب إلى بروزه Preveze بحوالي 122 سفينة مرورا بكريتGrit¹⁸.

5 قوات التحالف الأوروبي بقيادة أندريا دوريا

وفي المقابل كان دوريا قد وزع أسطولته البحري وفق خبرته البحرية فعسكر مع خمسين سفينة ، وكانت سبعون سفينة من نوع قاديرغه مع البندقية وثلاثون أخرى مع البابا بالإضافة إلى عشرة سفن ضخمة كانت متواجدة مع أسطول ملك البرتغال فاحتشد أكبر أسطول أوروبي في عرض البحر الأبيض المتوسط لم يشاهد مثله منذ معركة أكسيوم Akasyom التي وقعت في سواحل اليونان سنة 31 ق م.¹⁹ حيث تحالفت فيها معظم الدول الأوروبية، ما عدا فرنسا و بريطانيا حتى أن الصليبيين قد بلغوا درجة اليقين من أن النصر سوف يكون حليفهم لما كانوا يعرفونه من شجاعة وقوة وذكاء أندريا دوريا بل ذهبوا في الخيال إلى أبعد من ذلك ، إلى تقسيم تركة الدولة العثمانية على الدول الأوروبية بعد سقوطها²⁰

أما في الجهة المقابلة للنصارى كان باربروس خير الدين باشا مرابطا بجوار إستان كوي Istenköy من أجل رصد وجمع المعلومات عن العدو أكثر حيث أرسل تورغوت رئيس أحد رياس البحر المشاركين معه من أجل رصد و تتبع حركة سفن النصارى حيث رصد أسطولا يحتوي على أربعين سفينة من نوع قاديركه للبابا الأميرال كريماني Krimani من أربعين سفينة متخذقا في بروزه وعندما أحس البابا بالظروف المحيطة بقواته الصليبية المختبئة ووصله الخبر بكشف العثمانيين عن مكان وجودها ظهر خير الدين باربروس مع أسطولته للعلن وكشف للعدو عن قواته البحرية وكان ذلك يوم 27 أيلول عام 1538²¹.

6 موقعة معركة بروزه Preveze (1538م)

قبل الشروع في المعركة استدعى خير الدين ضباط البحرية الكبار للتشاور حول نقطة بداية المعركة فأشاروا عليه باستدراج العدو إلى داخل منطقة بروزه ومحاصرته بين نيران المدافع من القلعة التي كانت تحت سيطرة العثمانيين و جنود الإنكشارية في البر فيقع جيش العدو بين فكّي الجيش العثماني ، إلا أن خير الدين لم يوافق على ذلك وكان يرى أن خوض مثل هذه المعارك الكبيرة يجب أن يخطط لها في البحار المفتوحة وليس من الحكمة أن تكون في السواحل لعدم إمكانية القيام بالحركة والاستدارة عند الحاجة أولا ولتعذر استخدام المدافع الطويلة المدى ثانيا ثم حدّد خير الدين بربروس المكان الذي أراد أن يبدأ منه الجولة الأولى للمعركة في نقطة تباعد عن الساحل حوالي تسعة كلم ثم شرع في القصف على العدو مستخدما أسلوب المباغتة للضغط على أندريا دوريا وإخراجه من خندقه حتى يفرض عليه نمط سير المعركة لكن دوريا كان يتمنى اقتراب خير الدين إلى ساحل بروزه ويسحب القوات البحرية العثمانية إلى البر حيث الأرضية و الطبيعة الجغرافية التي تناسب فرسانه في الحرب وهو مالم يتحقق له فأصبح يبحث عن وضعية أحسن تسمح له بالرد دون أن يستجيب إلى مناورة خير الدين فقرر الذهاب إلى جزيرة باكسوس Paksos مروراً

بقورفو Korfo جنوباً ومن هناك بدأ الزحف إلى أن دخل بين جزيرة آيامافرا Ayamavra وجزيرة إتهاكه İthake

وبعد يوم واحد اقترب دوريا من منطقة بروزه فهاجم خير الدين من ناحية إنباخت Inabaht لاستفرازه وفي الصباح من يوم الغد تحرك الأسطول العثماني إلى ناحية قورفو من جديد ، وعند شروق الشمس رأى أندريا دوريا الأسطول العثماني خلفه فأصيب بالهلع وأخذ يستعد للحرب حتى وجد كلا الطرفين نفسه وجها لوجه جنوب غرب جزيرة آيا مافرا المواجه لخليج آرتا Arta (بروزه) ، فكان خير الدين ببروس في المركز بمساعدة حسن الكبير ابن خير الدين بالتبني وحسن الصغير ابن خير الدين من النسب وكلاهما أصبح واليا على الجزائر فيما بعد ، وفي الميمنة صالح رئيس و في الميسرة سيدعلي رئيس وفي الاحتياط تورغوت رئيس مع رفقاء آخرين مثل مراد و صادق و كوزلجه محمد كما اشترك رياس بحر آخرون في المعركة مثل سنان وشعبان و جعفر كانوا يقودون أساطيل خفيفة على الجناحين²³

وعند هجوم الجيش العثماني كانت القوات البحرية تأخذ شكل الهلال وهي الطريقة المستخدمة في الحروب العثمانية ثم شرع ببروس خير الدين باشا في تفكيك وحدات الأسطول الإسباني فبدلاً من مهاجمة السفن الخفيفة من نوع قاديرغه باغت السفن الكبيرة من نوع قاليون عن طريق القصف بالمدافع الطويلة المدى من أجل إحداث الخلل في صف العدو وإضعاف الجيش نفسياً و معنوياً ثم تجاوز مسرعاً سفن البنادقة مهاجماً السفن الأخرى تاركاً الجميع تحت قصف المدافع ، ثم تحرك الأسطول الاحتياطي بقيادة تورغوت رئيس فقام بالهجوم على سفن البندقية واقترب أندريا دوريا بسفنه الخفيفة إلى خط السفن الكبيرة حتى يمر بين القوات البحرية العثمانية وجزيرة آيا مافرا Ayamavra من أجل التضيق على سفن ببروس من الخلف لكن ببروس كان واعياً للحركة التي قام بها أندريا دوريا ، فقام باستدارة سفنه في مكانها على الفور ثم هاجم سفن دوريا من جهة اليمين فما كان على دوريا إلا أن يتراجع مع سفنه إلى الوراء²⁴ .

في هذه الأثناء قام ببروس بالهجوم على سفن العدو من جهة اليسار فاضطر دوريا للانسحاب إلى جزيرة آيامافرا في حذر شديد يريد أن يجعل السفن العثمانية بين أسطوله في محاولة ثانية للإطباق عليها و إغراقها إلا أنّ ببروس هاجم في هذه المرة عشرات السفن الصليبية التي كانت راكدة من غير حركة يمينا وشمالاً ثم قام بإضرام النار فيها وإحراقها واستمرت عملية الكرّ و الفرّ بينهما إلى المساء .

وعند حلول الظلام ، كان ببروس يخشى أن يتسلل دوريا في وسط الظلام و يفوت عليه فرصة الهجوم على السفن الشراعية الصليبية الراكدة على سطح البحر باستعماله سفن المجاديف فهي الأنسب عند هدوء العاصفة وهكذا نجد أنّ ببروس خير الدين باشا كان خبيراً بما يتناسب وطبيعة البحر بعد ذلك اختار ببروس الهجوم بكل شجاعة على خط السفن العملاقة كي يفتح الطريق في وسطها للوصول إلى السفن

الشراعية الصليبية المصطفة خلف السفن العملاقة فهجم الأتراك على القوات البحرية الصليبية مرة واحدة من جهاتها الأربعة مما أحدث دهشة كبيرة في صفوف النصارى أدت إلى تفكيك وحدات الأسطول النصارى وبدا واضحا التشتت في أمر القيادة فأصبح كل قائد يفكر في النجاة بنفسه. و الانسحاب من المعركة .

في هذه الأثناء كانت معنويات دوريا محطمة ،وبدت إرادته القتالية ضعيفة أمام ما شاهده من حماس وتماسك للجيش العثماني ، واضطراب كبير في القوات البحرية الصليبية باحثا عن مخرج من هذا المأزق فاضطر هو الآخر إلى الانسحاب السريع من ساحة المعركة على وقع دوي انفجار في أحد الأساطيل النصارانية أدى إلى الفوضى و الصخب بين صفوف النصارى ، استغل من طرف الكثير من القيادات النصارانية للهروب من ساحة المعركة وقد وقع ذلك ليلا فلم ير خير الدين أنّ تعقبهم في الظلام وسط العاصفة أمرا مناسباً لكنه حسم المعركة لصالح العثمانيين في مدة قياسية كسر بها كبرياء أندريا دوريا وأوقعه في أكبر هزيمة مدوية في تاريخ أوروبا وتعرضت معظم سفنه إلى أضرار وخسائر فادحة كالحرق و الغرق و العطب و التهشيم وقد وصف الشاعر المرادي انتصار البحرية العثمانية بقيادة بربروس و الهروب المخزي للجنود النصارى في أبيات له من الشعر.²⁵

وفي النهاية تفوقت البحرية العثمانية على الأساطيل الأوروبية لأسباب موضوعية حيث كانت أكثر تماسكا وانسجاما من حيث وحدة الانتماء الحضاري والسياسي ووحدة القيادة فكان رياس البحر جميعهم تحت أوامر و توجهات خير الدين ، فلقد اختار سفنه وقادته بعناية فائقة ، فقام باستخدام السفن الخفيفة والنحيفة التي تساعد على المناورة والتي كانت أكثر فاعلية في البحر الأبيض المتوسط من حيث الالتفاف و الدوران و الانزلاق فوق الأمواج فكانت لها القدرة على الكرّ و الفرّ في الوصول إلى أهداف العدو و الانسحاب بسرعة مع استخدام المدافع البعيدة المدى ، واختار أحسن قادته من فرسان ضباط البحرية أصحاب الخبرة الكبيرة في المصارعة على خلاف إستراتيجية دوريا التي كانت تعتمد على السفن العملاقة ، وتلك السفن وإن كان ظاهرها إثارة الرعب لكبر حجمها في البحر وكثرة عتادها من المدافع واستيعابها للعدد الكبير من الجنود لكنها عندما تتعرض للقصف تكون بطيئة جدا في المناورة و الحركة ويكون الجنود أكثر عرضة للغرق الأمر الذي يجعلها هدفا سهلا للسيطرة عليها ، فبفضل هذه العوامل وتلك استطاع خير الدين بربروس أن يحسم المعركة لصالح العثمانيين في يوم وليلة ، ولما رأى دوريا أنه لا قبل له بخير الدين انسحب من ساحة المعركة في ظلام الليل الدامس حتى لا تلاحظه أعين رياس البحر فيتعرض للأسر ، وخسر النصارى المعركة بتحطيم نصف الأسطول الذي كان مصيره إما الغرق أو الحرق وقتل عدد كبير منهم وأسر ثلاثة آلاف من جنودهم أما الخسائر في صفوف العثمانيين فقد كانت أربع مائة شهيدا و ثمان مائة جريحا.²⁶

وبعد مضي سبعة عشر يوما من الانتصار المظفر في معركة بروزه ، كان السلطان سليمان قد عاد من حملته الثامنة على بوغدان Bugdan إلى مدينة أدرنه ووقف حسن بك بن خير الدين باشا أمام السلطان سليمان القانوني في يوم اجتماع الديوان وقرأ على مسامعه رسالة النصر في معركة بروزه بقيادة أبيه خير الدين وبعد الاستماع إلى مجريات أحداث المعركة أطلق السلطان سليمان القانوني على معركة بروزه اسم "معركة الجهاد الأكبر" وسنّ الاحتفال بهذا النصر في كل أرجاء الدولة العثمانية و في 23 أكتوبر من نفس السنة جاء خير الدين باشا بنفسه إلى مدينة أدرنه و أخذ يقص على السلطان سليمان تفاصيل أحداث معركة بروزه أياما معدودة ووصف له كيف أصبح البحر الأبيض المتوسط كله بحيرة عثمانية وشرح له مستقبل سياسة البحر الأبيض المتوسط.²⁷

الخاتمة

من خلال ما ذكرناه عن تاريخ البحرية العثمانية ومراحل تطويرها ودور السلاطين العثمانيين الكبار في مرافقتها والوصول بها إلى مجابهة أعنى الأساطيل الأوروبية ، وانتصارها التاريخي في أكبر معركة في القرن السادس عشر توصلنا إلى النتائج التالية :

_ يعتبر انتصار الأسطول العثماني في معركة بروزه سنة 1538 م أهم حلقة في سلسلة الانتصارات البحرية العثمانية الخالدة التي أنجزت ضمن السياسة التي رسمها القانوني في البحر الأبيض المتوسط من أجل الحفاظ على مركز الدولة العثمانية ضمن التوازنات الدولية آنذاك .

_ إن فلسفة الدولة في تنمية وتطوير مجالها البحري عبر المجهودات المتواصلة التي قام بها السلاطين العثمانيون الأوائل منذ عهد السلطان يلدرم بايزيد الأول إلى السلطان سليمان القانوني الذي وصلت في عهده الدولة العثمانية إلى أعلى درجة العظمة كان بفضل سياسته الرشيدة التي انتهجها .

_ لا شك أن الخبرة التي أضافها القائد الملمهم باربروس خير الدين باشا عندما أصبح قائدا للقوات البحرية العثمانية غيرت مجريات الأحداث حيث أصبح رقما صعبا على القوات البحرية الصليبية إذ كان متحكما

بامتياز في سير وإدارة المعارك البحرية ولا سيما في معركة بروزه التي سيطر فيها العثمانيون على البحر الأبيض المتوسط مدة ثلث قرن .

_ استخدام نمط الأجنحة في الهجوم على العدو في شكل الهلال على أصول الحروب العثمانية في البر من التقنيات العسكرية العالية التي اختص بها العثمانيون في حروبهم ، بالإضافة إلى وحدة القيادة المركزية حيث كانت تحت أوامر خير الدين باشا القائد الأعلى للقوات البحرية العثمانية وتنفيذها بشكل محكم من قادة الألوية ورياس البحر .

_ انهزام البحارة الايطالي أندريا دوريا في معركة بروزه و فشله في قيادة القوات البحرية الأوروبية الضخمة دليل على أن الأساطيل الصليبية المشاركة لم تكن وحدة متجانسة من حيث فلسفة المذهب السياسي و الفكري و حتى العقدي بل كانت معظم وحدات الأسطول النصراني مستقلة في تسيير شؤون الحرب ولم تخضع في الجملة إلى أوامر دوريا بقدر ما كانت تنظر إلى تقاطع مصالحها مع دوريا مما يفسر تعرض سفنهم لضربات مدافعهم وعدم استجابتهم لصرخات نداء بعضهم البعض أثناء المعركة .

_ لقد أكسب العثمانيين هذا النصر عزة وكرامة و هيبة كبيرة في أوساط الشعوب الأوروبية كما جعلهم ظاهرين على إدارة البحر الأبيض المتوسط أكثر من ثلث قرن سيطروا فيها على بحر إيجه و البحر الأدرياتيكي بل تمكن خير الدين من فتح كل الجزر التي كانت عالقة من قبل وقام بالسيطرة على شرق البحر المتوسط بعدما كان خاضعا للبندقية مدة ثلاثين سنة واستعاد قلعة قاستال نووا kastal nova في ساحل قره داغي karadagi واستسلمت البندقية لتوقيع الصلح مع العثمانيين بتاريخ 20 أكتوبر 1540م وفقدت بذلك الأمل في السيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط .

_ إنَّ الهزيمة المدوية لشركان في معركة بروزه والانتقادات اللاذعة التي تلقاها دوريا من ملوك أوروبا حفرت في صدره الكثير من الأسى والحزن جعلته يفكر في الانتقام للشرف الاسباني وإعادة الاعتبار لشرفه وللملك شركان وللإمبراطورية الاسبانية وللبابا رمز المسيحية الأمر الذي جعله يفكر مرة أخرى في الحملة على مدينة الجزائر بتاريخ 1541م أي بعد ثلاث سنوات فقط من الهزيمة .

_ لقد كان فيما يظهر أن هدف دوريا من الحملة على الجزائر القضاء على الوجود العثماني في إفريقيا الشمالية في زعمه الذي بات مصدر إزعاج كبير لاسبانيا و سواحل إيطاليا ، وسردونيا ، وجزر البليار من البحارة الأتراك وبالتالي يعوض للإمبراطورية الاسبانية الكثير من الخسائر المعنوية والمادية ويحقق لهم الكثير من الامتيازات .

إنَّ الانتصار في معركة بروزه Preveze 1538 م بقيادة قائد القوات البحرية العثمانية خير الدين بربروس والانتصار على حملة شرلكان 1541 م بقيادة حسن آغا في الجزائر، كان بفضل البحرية العثمانية الجزائرية إذ كانت من أقوى الأساطيل البحرية في العالم ، كما يعتبر رياس البحر وضباط البحرية من أفضل ما أنجبت البحرية العثمانية في شرق و غرب البحر الأبيض المتوسط مثل كمال رئيس و بيبي رئيس وعروج رئيس وتورغوت رئيس وصالح رئيس والعلي رئيس وحسن آغا وغيرهم الكثير وإلحاقهم بالأسطول العثماني في تقديري هي الحلقة المفقودة التي انتهجها السلطان بايزيد الثاني وكانت سر نجاح السلطان سليمان القانوني حيث كان موفقا في الكثير من قراراته السياسية .

وفي النهاية لا شك أن الدراسات في تاريخ البحرية العثمانية وإن تطرق إليها أهل الاختصاص من المؤرخين في البلاد العربية أو في تركيا وفي بلاد الغرب إلا أننا في حاجة ماسة إلى الرجوع إليها مرات عديدة من أجل إثرائها و تسليط الضوء على أهم مراحلها ودراسة كل مواضيعها بشكل محايد ومستقل كالترسانات البحرية و تشكيلاتها الإدارية و العسكرية و ورشات صناعة السفن بكل أنواعها والتعرف على المدافع المستخدمة في معاركها وأساطيلها و أهم الانتصارات التي غيرت موازين القوى لصالح الدولة العثمانية و التطرق إلى أهم القيادات التي صنعت الفارق في كل مراحلها .

المراجع

- 1 يلماز أوز تونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ط 1 ، مؤسسة فيصل للتمويل ، اسطنبول ، 1988 ، ص (103-108)
- 2 المرجع نفسه ، ص. 103
- 3 Özen Tok, *Osmanlı Teşkilatı Tarihi*, Ed: Tufan Gündüz , Grafiker Yay . ,Ankara 2012,s 191.
- 4 يلماز أوز تونا ، ترجمة د. محمد دراج ، مذكرات خير الدين بربروس ، ط 1 ، أصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2010 م ص 29 .
- 5 أكمل الدين أحسان أوغلو ، الدولة العثمانية تاريخ و حضارة ، ج 1 ، ط 1 ، مطبعة يلديز ، اسطنبول ، 1999 م ص. 42 ،
- 6 İsmail Hakkı Uzunçarşılı , *Osmanlı Tarihi* , C. 2 s.576.
- 7 اسماعيل أحمد ياغي ، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط 2 ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 1998 ، ص (66-68)
- 8 وليم سبنسر ، ترجمة ، عبد القادر زبادية ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ط 1 ، دار القصة للنشر ، الجزائر ، 2006 ، ص (10-11)
- 9 يلماز أوز تونا ، المرجع السابق ، ص 167-179
- 10 يلماز أوز تونا ، ترجمة د. محمد دراج ، مذكرات خير الدين بربروس ، ط 1 ، أصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2010 م ص (167-171)
- 11 أكمل الدين إحسان أوغلي ، المرجع السابق ، ص. (42 – 43)
- 12 خليل إنالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، ترجمة محمد الأرنؤوط ، ط 1 ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2002 م ، ص (57 – 62)
- 13 شوقي أبو خليل ، تشلديران سليم الأول العثماني واسماعيل الصفوي ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق ، 2005 م ص. 24 وما بعدها
- 14 عثمان نوري طوباش ، ترجمة د. محمد حرب ، العثمانيون ، مطبعة دار الأرقم ، اسطنبول 2016 ، ص (211-212)
- 15 هي إحدى السفن الشراعية المستخدمة في الحروب البحرية باستعمال المجاديف تحتوي على 25 مقعدا في كل مقعد أربعة رجال يقومون بعملية السحب انظر عبد الله يكييت وآخرون القاموس الكبير للموسوعة العثمانية التركية ، دار تورداء للطباعة والنشر ، 2000 ، ص 480 .

- 16 أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492-1792 ، ط3 ، دار البصائر ، الجزائر، 2009 م ، ص (202-203)
- 17 M. TayyibGökBilgin ,” *Süleyman* “,İA,C.11, MEB Yay. ,İstanbul 1979,s 123
- 18 A.G.E, S 123
- 19 د محمد دراج ، المرجع السابق ، ص . 305
- 20 İdrisBostan, *OsmankılarveDeniz*,KÜRE Yay . ,İstanbul , 2007,s. 20
- 21 Yılmaz Öztuna *Türkiye Tarihi*,Cilt 6,s. 275
- 22 Halil İnalçık, *Osmanlılar*, Timaş Yay . , İstambul 2010 , s.41
- 23 يلماز أوز تونا ، المرجع السابق ، ص.296
- 24 Hammer, *Büyük Osmanlı Tarihi*, s144
- 25 CelalZadeMüstafaÇelebi,*MühreşemÇağ , KanüniSültan Süleyman* , KariyerYay. ,İstanbul 2011,s.244-245
- 26 YılmazÖztuna, *Türkiye Tarhi*, Cilt 6, . s.276
- 27 يلماز أوز تونا ، المرجع السابق ، ص (296-297)